

(الحديث النبوي) الأصل الثاني من أصول الاحتجاج البلاغي
دراسة في المنهج والتطبيق

أ. عبد السلام محمد الجربي*

تمهيد

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد في الأولين، والآخرين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اقتفى أثرهم إلى يوم الدين. وبعد:

فإن علوم اللغة العربية لاسيما البلاغة وُجدت لخدمة القرآن الكريم، والسنة النبوية، ولهذا فإن العلماء القدامى والمحدثين عكفوا على ربط دراساتهم البلاغية بكتاب الله، وحديث رسوله ﷺ، وإن كانت دراساتهم للشواهد القرآنية، والشعرية تبدو أكثر وضوحًا، وجلاءً، فيميلون إلى القرآن، والشعر أكثر من الحديث النبوي، فمؤلفاتهم ومصنفاتهم التي تناولوا فيها المباحث البلاغية من خلال الحديث النبوي تبدو للباحث – فيما رأى– ضئيلة نادرة، لاسيما في مجال الاحتجاج البلاغي بأحاديث الرسول ﷺ، فقد كان أكثرهم يورد الشواهد الحديثية ولا يعقب عليها، أو يعقب تعقيبًا عارضًا، دون أن يوغل في أعماق النص الحديثي ويأتي على أسراره ودقائقه، وما حواه من شواهد بلاغية، وإن كانت هذه الجهود مبعثرة في مصنفات المتأخرين الذين اهتموا بالمباحث البلاغية في كتب الصحاح والسنن، مثل: التشبيه في صحيح مسلم والبخاري، وغيرها من المصنفات والأطروحات التي اعتنت بالاحتجاج بالحديث النبوي كأصل من أصول

* كلية العلوم الشرعية، مسلاتة.

الاحتجاج البلاغي في تقعيد قواعد البلاغة العربية.

والذي دعاني إلى اختيار هذا الموضوع هو ربط الدراسات البلاغية بأحاديث الرسول ﷺ؛ لأن الاستشهاد بأحاديث الرسول ﷺ في مؤلفات ومصنفات كثير من البلاغيين، استشهاد يحوم حوله استفهام، فقد جمعوا بين الأحاديث الصحيحة، والضعيفة، والموضوعة، والمختلفة في كثير من ألفاظها، ورواياتها، في كثير من الأحيان، فأضع بهذه الدراسة لبنة من اللبنات الأولية الأساسية في مكتبتنا البلاغية إسهامًا في خدمة الأحاديث النبوية، ولغة القرآن الخالدة، التي فاقت كل لغة وأربت على كل لسان.

وإن كان أساطين وعلماء البلاغة العربية قد جعلوا القرآن الكريم، وكلام العرب حجة في قواعدهم البلاغية، فإن أحاديث الرسول ﷺ هي الأصل الثاني بعد القرآن الكريم، فليس هناك أحد أفصح قولاً، وأبين كلامًا، وأعلى بلاغة من النبي ﷺ، حيث قال ﷺ: « يا أَيُّها الناسُ، إنِّي قَدْ أُوتِيتُ جَوامِعَ الكَلِم وخَواتِمَه، واخْتُصِرَ لي اخْتِصَاراً، ولَقَدْ أَتَيْتُكم بِها بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، فلا تَتَهَوَّكُوا، ولا يَغُرَّنَّكُم المتَهَوِّكُونَ »[1]. (جَوامِعَ الكَلِم) أي ملكة أقتدر بها على إيجاز اللفظ مع سعة المعنى بنظم لطيف لا تعقيد فيه يعثر الفكر في طلبه، ولا التواء يحار الذهن في فهمه، فما من لفظة يسبق فهمها إلى الذهن إلا ومعناها أسبق إليه.

وقال الجاحظ واصفًا كلام الرسول الأكرم ﷺ: « هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجَلَّ عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف، فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أهل التعقيد، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب والوحشي، ورغب عن الهجين والسوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويُسّر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقاه الله عليه بالمحبة، وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ... لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له

1- الحديث حسن الإسناد يُنظر في: مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي: 419/1، تحقيق: عبد الله الدرويش، دار الفكر، بيروت: 1994م، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني: 525/13، دار المعرفة بيروت لبنان. والتهوك: مثل التهور، وهو الوقوع في الشيء بغير مبالاة، ولا روية، والمتهوكون: المتحيرون. تاج العروس للزبيدي: 411/27، تحقيق: مصطفى حجازي، صدر عن وزارة الإعلام في الكويت: 1993م.

حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذّ الخطب الطوال بالكلم القصار ... ولا يحتجّ إلاّ بالصدق ولا يطلب الفلج إلاّ بالحق، ولا يستعين بالخلابة ... ولم يسمع الناس بكلام قطُّ أعمّ نفعًا، ولا أقصد لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح معنىً، ولا أبين في فحوى من كلامه ﷺ »[2]، ثم قال: « ... ولعل بعض من يتسع في العلم ولم يعرف مقادير الكلام يظن أنّا تكلّفنا له من الامتداح والتشريف، ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده ولا يبلّغه قدره كلاّ والذي حرّم التزيد على العلماء، وقبّح التكلف عند الحكماء، ... لا يظن هذا إلا من ضل سعيه »[3].

وقال أبو حيان يصف بلاغة رسول الله ﷺ: « والثاني سنة رسول الله ﷺ، فإنها السبيل الواضح، والنجم اللائح، والقائد الناصح، والعَلم المنصوب، والأمم المقصود، والغاية في البيان، والنهاية في البرهان، والمفزع عند الخصم، والقدوة لجميع الأنام »[4].

وقال محمد بن سلام: قال يونس بن حبيب: « ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ »[5].

وقال مصطفى صادق الرافعي في الحديث: « كلامه ﷺ ليس مما تكلف له، ولا داخلته الصنعة، ولا كان يَتلوَّم على حَوْكِهِ وسَردِه، ولكنه عَفوُ البديهة، ومساقطة الحديث، ... وأنه مع ذلك لعلى ما وصفنا وفوق ما وصفنا ... إن ذلك شيء لم يتفق مثله في هذا الباب ... لرقته، وعذوبته، واطراده ... إنه كلام كلما زدته فكراً زادك معنى »[6].

ففصاحته ﷺ أمر لا يشك فيه عاقل، ذلك أن القوم الذين أُرسل إليهم هم أئمة البيان، وهم في خصومته قوم لُدّ، لا يعزوهم منطق بليغ، قد نعتوا الرسول ﷺ بأوصاف عديدة كيداً ومخاصمة، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينعتوه بما ينال بفصاحته؛ لأنهم يعلمون

2- البيان والتبيين: 17/2، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة السابعة: 1998م.

3- المصدر السابق: 18/2.

4- البصائر والدخائر للتوحيدي: 8/1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر، 1953م.

5- البيان والتبيين: 17/2.

6- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: 327-328، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة: 1973م.

أن مثل هذه الفرية زائفة باطلة لدى عامة الناس قبل خاصتهم من أساطين البلاغة والبراعة والبيان.

قد كان لنشأته ﷺ بين قومه تأثير في فصاحته، فهو من بني هاشم من قريش، وأخواله من بني زهرة، واسترضع في بني سعد بن بكر. فروي أن سيدنا أبا بكر قال له[7]:يا رسول الله لقد طفت في العرب، وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك فمن أدبك؟ قال ﷺ: «ربي ونشأت في بني سعد».

أما معاني أحاديثه ﷺ قل أن تجتمع في كلام سواه، فمعاني الحديث الواحد كثيرة متنوعة، فهذه المعاني لم تترك جانبًا في الحياة إلا وقررته، وفصلت فيه القول.

والأذواق والنظرات فيما حوته تلك الأحاديث من أسرار، ونكات بلاغية تتباين مصداقًا لقول الرسول ﷺ: «رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»[8].

الحديث النبوي مصطلحًا، وشاهدًا بلاغيًا

لامناص في مطلع هذه الدراسة من التعريف بمصطلح الحديث في عرف علماء الحديث، وهو في اصطلاح جمهور المحدثين يطلق على: قول النبي ﷺ، وفعله، وتقريره[9].

والذي يعنينا في الدراسات البلاغية، والأدبية، إنما هو قوله ﷺ، وقد ظفر بحمد الله بجهود ضخمة في التحري والدقة والتثبت من صحة نسبته إلى النبي ﷺ على وجه لم يظفر بها نص من النصوص الأخرى.

فهو المصدر الثاني للغة بلا منازع، وسيبقى إلى جانب القرآن الكريم مصدراً للاستدلال والاحتجاج، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فالتمسك بهما سر نجاح الأمة العربية والإسلامية وتقدمها، مصداقًا لقوله ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا

7- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني: 207/5، دار المعارف، الرياض، الطبعة الأولى: 1992م.

8- صحيح البخاري: 24/1، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى: 1422هـ.

9- مقدمة في أصول الحديث لعبد الحق بن البخاري الدهلوي: 33، تحقيق: سلمان الحسيني الندوي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: 1406هـ - 1986م.

تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ»(10).

ويجدر بنا أن نفرق بين الحديث، والخبر، والأثر:

الحديث والخبر في المشهور عند علماء الحديث بمعنى واحد، وبعضهم خص الحديث بما جاء عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين، والخبر بما جاء عن أخبار الملوك والسلاطين والأيام الماضية، ولهذا يقال لمن يشتغل بالسنة محدّث، ولمن يشتغل بالتواريخ أخباريّ.

وخصص بعضهم الحديث بالمرفوع والموقوف إذ المقطوع يقال له الأثر، وقد يطلق الأثر على المرفوع كما يقال: الأدعية المأثورة المروية عن النبي ﷺ(11).

وخلاصة القول: إذا أطلق (الحديث) أريد به ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، أو صفة خَلقية، أو خُلقية. وقد يرد به ما أضيف إلى صحابي أو تابعي، ولكن الغالب أن يقيد إذا ما أريد به غير النبي ﷺ.

ويطلق الخبر والأثر ويراد بهما ما أضيف إلى النبي ﷺ، وما أضيف إلى الصحابة والتابعين، وهذا رأي جمهور المحدثين، إلا أن بعضهم يسمون الموقوف أثراً، والمرفوع خبراً(12).

وعلى كلّ الذي يهمنا في الدرس البلاغي هو قوله ﷺ الذي قال فيه جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: 3-5] ، وإن حكم العلماء بضعف بعضه، فهو أوثق بكثير من النصوص الشعرية والنثرية التي تنسب لشعراء الجاهلية وصدر الإسلام، والتي وصلت إلينا عن طريق الرواة المشكوك في رواية بعضهم مثل: خلف الأحمر، وحمّاد، وجرّاد، وغيرهم من الرواة. تلك النصوص التي عدها كثير من المشتغلين بالأدب من المسلمات التي لا تحتمل شكًا. والمحدثون عندما يحكمون لحديث بأنه صحيح أو حسن الإسناد، فيكون من أوثق

10- موطأ الإمام مالك: 1323/5، الحديث: 3338، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، طبع مؤسسة زايد بن سلطان الخيرية، أبو ظبي، الطبعة الأولى: 2004م.

11- مقدمة في أصول الحديث: 34-37.

12- الحديث النبوي في النحو العربي تأليف د. محمود فجال: 55، دار أضواء الرياض، الطبعة الثانية: 1997م.

النصوص، لدقتهم في توثيقه، وصحة حكمهم عليه بالأدلة والبراهين.

الاحتجاج بالحديث النبوي كشاهد أساسي في الموروث البلاغي

من حيث الاستشهاد به فحقه أن يقدم على سائر كلام العرب، من نثر وشعر، في باب الاحتجاج لتقعيد قواعد البلاغة العربية، إذ لا تعهد العربية في تاريخها بعد (القرآن الكريم) بيانًا أبلغ من الكلام النبوي، ولا أروع تأثيرًا، ولا أفعل في النفس، ولا أصح لفظًا، ولا أقوم معناً منه، ولكن ذلك لم يقع كما ينبغي، لانصراف علماء البلاغة المتقدمين إلى الاستشهاد بالشعر والنثر في مصنفاتهم، لإثبات صحة قواعدهم وما يرمون إليه، إلا ما قل وندر عند بعضهم ممن يورد أحاديث دون أن يعلق عليها، أو يعلق تعليقاً عابراً دون تعمق في أسراره وما حواه من دقائق وفرائد بلاغية، وسأورد بعضًا منه في هذا الدراسة على النحو الآتي:

ابتدأ بالجاحظ المتوفى: (255هـ) الذي ذكرت آنفًا إشادته بالحديث النبوي وجمال بلاغته، ودقة تصويره، وصنوف بدائعه. فقد ذكر في كتابه: (البيان والتبيين) من كلام الرسول ﷺ، مما لم يسبقه إليه عربي، ولا شاركه فيه أعجمي، ولم يُدّع لأحد ولا ادّعاه أحد مما صار مستعملاً ومثلاً سائراً، وأورد عدّة منها مثل: قوله ﷺ: «يا خيل الله اركبي»، وقوله ﷺ: «مات حتف أنفه»، وقوله ﷺ: «لا تنتطح فيه عنزان» وقارن بينه وبين قول عدي بن حاتم في قتل عثمان رضي الله عنه: «لا تحبق فيه عناق» أي: أمر لا يُعبأ به وثأر لا يدرك[13].

وقال رسول الله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ويرد عليهم أقصاهم وهم يد على من سواهم» فتفهم رحمك الله قلة حروفه وكثرة معانيه.

ومن كلامه ﷺ حين ذكر الأنصار فقال: «أما والله ما علمتكم إلا لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع» وقال ﷺ: «الناس كلهم سواء كأسنان المشط» وقال ﷺ: «والمرء كثير بأخيه» وقال ﷺ: «ولا خير في صحبة من لا يرى لك ما يرى لنفسه» وغير ذلك كثير مما يشيد بفصاحته ﷺ، ودقة لفظه، ووازن بينه وبين قول شعراء العرب مع الفارق مثل قول كثير عزة:

13- البيان والتبيين: 15/2.

سـواء كأسـنان الحمـار فـلا تـرى   لذي شـيبة مـنهم علـى ناشـئٍ فضـلاً

وقال آخر:

شـبابهم وشـيبهم سـواء   فهـم في اللـون أسـنان الحمـار

تأمل بإمعانٍ تشبيه الشاعر وحقيقته، وتشبيه الـنبي وحقيقتـه لـتعلم فضـل مـا بـين الكلامين(14).

ثم ذكر طائفة غير قليلة من الأحاديـث سـردها سـردًا دون تعليـق، أو تحليـل، أو دراسة لدقائقها وأسرارها، وما اشتملت عليه من كنوز بلاغية.

وابن رشـيق القيروانـي المتـوفى (456هـ) في كتابـه (العمـدة في محاسـن الشـعر وآدابه) نوّه ببعض الأحاديث للتمثيل على قاعدة يضعها، وقلّما كـان يدرسـها أو يحللـها، إلا في حديث واحد وهو قوله ﷺ: « إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكماً » وقيـل: (لحكمة)، فقرن البيان بالسحر فصاحة منـه ﷺ، وجعـل مـن الشـعر حُكمـاً؛ لأن السـحر يخيل للإنسان ما لم يكن للطافته وحيلة صاحبه، وكذلك البيان يتصور فيه الحـق بصـورة الباطل، والباطل بصورة الحق؛ لرقة معناه، ولطف موقعه(15).

واقتصر في ثنايا الكتاب على ذكر الأحاديث ذو أن يقف دونها معلقًـا أو شـارحًا، أو محللاً، واكتفى بالحكم العام، والاستحسان المجرد كما في الأمثلة الآتية:

قال النبي ﷺ للأنصار: « إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عنـد الطمـع »، وقـال ﷺ: « كفى بالسلامة داء » ومثـل هـذا كـثير في كلامـه ﷺ، ومـن أولى منـه بالفصـاحة وأحـق بالإيجاز؟، وقوله ﷺ: « أعطيت جوامع الكلم » فأما قوله ﷺ: « كفى بالسـيف شـا » يريـد (شاهداً) فقد حكاه قوم من أصـحاب الكتـب، والـذي أرى أن هـذا لـيس ممـا ذكـروا في شيء؛ لأن رسول الله ﷺ إنما قطع الكلمة وأمسك عن تمامها لـئلا تصـير حكمـاً، ودليـل ذلك أنه قال ﷺ: « لولا أن يتتابع فيه الغيران والسكران » فهذا وجه الكلمة والله أعلم(16).

14- البيان والتبيين: 19/2.

15- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابـن رشـيق القيروانـي 27/1، تحقيـق: محمـد محـي الـدين عبـد الحميد، دار الجيل للطباعة، سوريا، الطبعة الخامسة، 1981م.

16- المصدر السابق: 253/1.

وقال ابن رشيق يثني بكلام عام على الحديث وبلاغته: ومن أفضل كلام البشر قول رسول الله ﷺ في بعض خطبه: «فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات؛ فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا دار، إلا الجنة أو النار» فهذا هو المعجز الذي لا تكلف فيه ولا مطمع في الإتيان بمثله[17].

ومن أشرف وأدق المنثور الذي ذكر في باب التقسيم قوله ﷺ: «وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت» فلم يبق ﷺ قسماً رابعاً لو طلب يوجد[18].

وأبو حيان علي بن محمد التوحيدي في كتابه: (الإمتاع والمؤانسة) أورد طائفة من أحاديث سيد الخلق ﷺ سردها سردًا دون تعليق، أو تحليل، أو دراسة لدقائقها وأسرارها، البلاغية.

منها قوله ﷺ: «ما نقص مالٌ من صدقة، فتصدقوا، ولا عفا رجلٌ عن مظلمةٍ إلا زاده الله عز وجل عزاً وعفواً؛ ولا فتح رجلٌ على نفسه باب مسئلةٍ إلا فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر، فاستعفوا»، وقال ﷺ: «ظهر المؤمن مشجبه، وبطنه خزانته، ورجله مطيته، وذخيرته ربه»، وقال ﷺ: «أجود الأعمال الجود في العسر، والقصد في الغضب، والعفو عند المقدرة»[19].

أمّا الإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى (471هـ): في كتابيه: (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) فلم تكن له عناية بالحديث على النحو الذي كان بالنسبة للقرآن، وهذا طبيعي؛ لأن موضوع الإعجاز كان همه الأول، إلا بعض النماذج التي تناول فيها الأحاديث من وجهة نظر بيانية.

قال الجرجاني في مبحث التجنيس: وإن أنت تتبعته من الأثر وكلام النبي ﷺ تثق كل الثقة بوجودك له على الصفة التي قدمت، وذلك كقول النبي ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»، وقوله ﷺ: «لا تزال أمتي بخير ما لم تر الغنى مغنمًا والصدق مغرمًا»،

17- العمدة لابن رشيق: 8/2.

18- المصدر السابق: 21/2.

19- الإمتع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي 269/1، تصحيح وشرح: أحمد أمين، وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة للطباعة.

وقوله ﷺ: «يا أيها الناس افشوا السلام واطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام» فأنت لا تجد في جميع ما ذكرت لفظاً اجتلب من أجل السجع، وترك له ما هو أحق بالمعنى منه، وأبر به، وأهدى إلى مذهبه[20].

وقال في مبحث الاستعارة: وكما جاء في الخبر: «كلما سمع هيعة طار إليها»[21]. ولم يعقب على ذلك بأي تحليل أو توضيح للشاهد.

وقال الجرجاني: ... وعلى ذاك ما جاء في الخبر من أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع. قال ﷺ: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاته، وزكاته، وصيامه، فيأتي وقد شتم هذا، وأكل مال هذا، وقذف هذا، وضرب هذا، وسفك دم هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يفنى ما عليه من الخطايا أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار».

وذاك أنه ﷺ بيّن الحكم في الآخرة، فلمّا كان الإنسان إنما يعد غنيًا في الدنيا بماله؛ لأنه يجتلب به المسرة ويدفع المضرة، وكان هذا الحكم في الآخرة للعمل الصالح ثبت لا محالة أن يكون الخالي -نعوذ بالله من ذلك- هو المفلس، إذ قد عرى مما لأجله يسمى الخالي من المال في الدنيا مفلسًا وهو ما يوصله إلى الخير والنعيم، ويقيه الشر والعذاب، نسأل الله التوفيق لما يؤمن من عقابه[22].

وقال الجرجاني في مبحث الفرق بين الاستعارة والتشبيه البليغ: لم تجد فيه هذا القدر من التمحل والتكلف أيضاً وهو كقول النبي ﷺ: «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة» قل الآن: من أي جهة تصل إلى الاستعارة ههنا، وبأي ذريعة تتذرع إليها؟ هل تقدر أن تقول: رأيت إبلاً مائة لا تجد فيها راحلة في معنى رأيت ناساً والإبل المائة التي لا تجد فيها راحلة تريد الناس، كما قلت: رأيت أسداً على معنى رجلاً كالأسد، وأطلقت عليه الأسد على معنى: الذي هو الأسد.

وكذا قول النبي ﷺ: «مثل المؤمن كمثل النخلة أو مثل الخامة» لا تستطيع أن

20- أسرار البلاغة للجرجاني: 194-195، تحقيق: د. علي رمضان الجربي، منشورات إلجا مالطا، الطبعة الأولى: 2001م.

21- المصدر السابق: 239.

22- المصدر السابق: 266.

تتعاطى الاستعارة في شيء منه، فتقول: رأيت نخلة أو خامة على معنى رأيت مؤمنا[23].

وهذه نماذج من كتابه (أسرار البلاغة) الذي بلغت عدد شواهده الحديثية (اثنا عشر شاهدًا) تكلم في بعضها من وجهة نظر بيانية وفصل القول فيها كما بيّنا، وذكر شواهد أخرى لم يفصل القول فيها على النحو السابق مثل: قوله ﷺ: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»، وقوله ﷺ: «يا بني هاشم لا تجيئني الناس بالأعمال وتجيئوني بالأنساب»[24]، سائرًا على منهج سابقيه في السرد وعدم التعليق.

أما كتابه (دلائل الإعجاز) فلم أجد فيه مثل هذه الوقفات، ولم يورد في كتابه إلا بضعًا من الأحاديث (ستة أحاديث) على سبيل الاستشهاد لتأييد رأيه في القاعدة التي يقررها، ولم يقصد دراستها، ولم يتعرض للخصائص الفنية التي تمتاز بها تلك الأحاديث النبوية.

أما ابن الأثير المتوفى (637هـ) في كتابه: (المثل السائر) فقد كان أكثر المتقدمين استشهاداً بالأحاديث النبوية فبلغت عدد شواهده (مائة وثلاثين شاهدًا)، فقد كان ذا عناية جيدة بالسنّة كما ذكر بقوله: «وكنت جرَّدت من الأخبار النبوية كتابًا يشتمل على ثلاثة آلاف خبر كلها تدخل في الاستعمال، وما زلت أواظب على مطالعته مدة تزيد على عشر سنين، فكنت أنهي مطالعته في كل أسبوع مرة، حتى دار على ناظري وخاطري ما يزيد على خمسمائة مرة وصار محفوظًا لا يشذ عني منه شيء»[25].

وخصص الفصل الخامس لدراسة جوامع كلمه ﷺ، وعلق على بعض منها، وسنورد نخبة منها على سبل المثال لا على سبيل الحصر لضيق المقام، وطول المقال.

قال ابن الأثير: أما ما يأتي على حكم المجاز فقوله ﷺ يوم حنين: «الآن حمي الوطيس»، وهذا لم يسمع من أحد قبل رسول الله ﷺ، ولو أتينا بمجاز غير ذلك في معناه فقلنا: استعرت الحرب لما كان مؤدياً من المعنى ما يؤديه حمي الوطيس والفرق بينهما أن: الوطيس هو التنور، وهو موطن الوقود ومجتمع النار، وذلك يخيل إلى السامع أن هناك صورة شبيهة بصورته في حميها وتوقدها وهذا لا يوجد في قولنا: استعرت

23- أسرار البلاغة: 463.

24- المصدر السابق: 483.

25- المثل السائر، لابن الأثير 150/1، تحقيق: د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة: الثانية.

الحرب أو ما جرى مجراه.

وهذا من القسم الأول: (من جوامع الكلم) عنده وهو ما استخرجه ونبه عليه ولم يكن لأحد فيه قول سابق حيث قال: «وهو أن لنا ألفاظًا تتضمن من المعنى ما لا تتضمنه أخواتها مما يجوز أن يستعمل في مكانها فمن ذلك ما يأتي على حكم المجاز، ومنه ما يأتي على حكم الحقيقة»[26].

أما القسم الثاني من: (جوامع الكلم) فالمراد به الإيجاز الذي يدل به بالألفاظ القليلة على المعاني الكثيرة أي أن ألفاظه جامعة للمعاني المقصودة على إيجازها واختصارها، وجل كلامه جار هذا المجرى فلا يحتاج إلى ضرب الأمثلة به، وسيأتي في باب الإيجاز منه ما فيه كفاية ومقنع.

فأما الذي يدل على معنيين فالكنايات جميعها كالذي ورد في الحديث عن النبي ﷺ وعن أصحابه ﷺ: «أنهم كانوا إذا خرجوا من عنده لا يتفرقون إلا عن ذواقٍ» وهذا يدل على معنيين:

أحدهما: إطعام الطعام أي أنهم لا يخرجون من عنده حتى يطعموا.

والآخر: أنهم لا يتفرقون إلا عن استفادة علم وأدب يقوم لأنفسهم مقام الطعام لأجسامهم[27].

وكذلك ورد قول النبي ﷺ: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليتوضأ» أي إذا أراد القيام إلى الصلاة، وإنما يعبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل؛ لأن الفعل مسبب عن الإرادة وهو مع القصد إليه موجود فكان منه بسبب وملابسة ظاهرة[28].

ومما ورد منه في الأخبار النبوية في باب التشبيه قول النبي ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ولا طعم لها، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر» وهذا من باب تشبيه المركب بالمركب ألا ترى أن النبي ﷺ شبه المؤمن القارئ وهو متصف بصفتين هما: الإيمان، والقراءة بالأترجة:

26- المثل السائر: 78/1.

27- المصدر السابق: 267/2.

28- المصدر السابق: 274/2.

وهي ذات وصفين هما: الطعم، والريح، وكذلك يجري الحكم في المؤمن غير القارئ، وفي المنافق القارئ، والمنافق غير القارئ[29].

ومما ورد من الاستعارة في الأخبار النبوية قول النبي ﷺ: «لا تستضيئوا بنار المشركين» فاستعار النار للرأي والمشورة، أي: لا تهتدوا برأي المشركين ولا تأخذوا بمشورتهم[30].

واستشهد ابن الأثير في مبحث الكناية بقول النبي ﷺ: «رُوَيْدَكَ سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ» يريد بذلك النساء فكنى عنهن بالقوارير، وذاك أنه كان في بعض أسفاره وغلام أسود اسمه (أنجشة) يحدو فقال له ﷺ: «يَا أَنْجَشَةُ رُوَيْدَكَ سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ» وهذه كناية لطيفة[31].

ومن خفيّ التعريض وغامضه ما ورد في الحديث النبوي وهو أن النبي ﷺ خرج وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول: «وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَتُجَبِّنُونَ وَتُبَخِّلُونَ، وَإِنَّكُمْ لَمِنْ رَيْحَانِ اللَّهِ، وَإِنَّ آخِرَ وَطْأَةٍ وَطِئَهَا اللَّهُ بِوَجٍّ».

اعلم أن (وَجّاً) واد بالطائفِ، والمراد به: غزوة حنين، وحنين واد قبل وَجٍّ؛ لأن غزوة حنين آخر غزوة أوقع بها رسول الله ﷺ مع المشركين، وأما غزوتا الطائف وتبوك اللتان كانتا بعد حنين، فلم يكن فيهما وطأة أي قتال، وإنما كانتا مجرد خروج إلى الغزو من غير ملاقاة عدو ولا قتال، ووجه عطف هذا الكلام وهو قوله ﷺ: «وَإِنَّ آخِرَ وَطْأَةٍ وَطِئَهَا اللَّهُ بِوَجٍّ» على ما قبله من الحديث هو التأسف على مفارقة أولاده لقرب وفاته؛ لأن غزوة حنين كانت في شوال سنة ثمان ووفاته كانت في ربيع الأول من سنة إحدى عشرة، وبينهما سنتان ونصف، فكأنه قال: «وإنكم لمن ريحان الله» أي من رزقه، وأنا مفارقكم عن قريب إلا أنه صانع عن قوله وأنا مفارقكم عن قريب بقوله ﷺ: «وَإِنَّ آخِرَ وَطْأَةٍ وَطِئَهَا اللَّهُ بِوَجٍّ»، وكان ذلك تعريضاً بما أراده وقصده من قرب وفاته ﷺ[32].

هذه نماذج لما صنعه بعض القدامى في آثارهم، واستشهادهم بالحديث النبوي كمصدر ثانٍ من مصادر الاحتجاج البلاغي في تقعيد قواعد البلاغة العربية، وإن كانت

29- المثل السائر: 2/137-138.

30- المصدر السابق: 2/96-97.

31- المصدر السابق: 3/64.

32- المصدر السابق: 3/74.

في مجملها دراسات غير معمقة، ذكرتُ نماذج منها، فالمقام لا يسعني لاستقصائها والإحاطة بها، فهي تحتاج إلى دراسات معمقة ومطولة، وعلى كلّ فما قدموه من محاولات تحسب لهم، وترفع من قيمة كتبهم، وتزيدها وضوحًا وجلاءً، بكثرة شواهدهم التي تزيل اللبس، وتصقل الذهن، وتوضح القاعدة، أو ما يرمون إليه بكل بساطة ويسر، وما عرضته غيضٌ من فيض، لم استقصي فيه جهود كل علماء البلاغة في تلك الحقبة الزمنية المنصرمة، وإنما اخترت بعضهم على سبيل المثال لا الحصر، لأثبت بالأدلة والبراهين حُجية الحديث النبوي في تقعيد قواعد البلاغة العربية كمصدر من مصادر الاحتجاج البلاغي بعد القرآن العظيم.

والمحدثون من علماء البلاغة فكانت لهم جهود في دراسة البلاغة النبوية

قام علماء العصر الحاضر بدراسات حول البيان النبوي من أشهرها: دراسة مصطفى صادق الرافعي المتوفى (1937م) في كتابه: (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)، حيث كتب أعمق كتابة فقال: «هذه هي البلاغة الإنسانية التي ... حسرت العقول دون غايتها، لم تُصنع وهي من الإحكام كأنها مصنوعة، ولم يُتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة». وقال: «ألفاظ النبوّة يعمرها قلبٌ متصل بجلال خالقه، ويصقِلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي، ولكنّها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله، مُحكمة الفصول، حتى ليس فيها عروة مفصولة، محذوفة الفضول، حتى ليس فيها كلمة مفضولة.

وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبضُ قلب يتكلم، وإنما هي في سُموها وإجادتها مظهرٌ من خواطره ﷺ، ... وهي البلاغة النبوية، تعرف الحقيقة فيها كأنها فكر صريح من أفكار الخليقة؛ وتجيء بالمجاز الغريب فترى من غرابته أنه مجاز في حقيقة»(33).

وكتب في (وحي القلم) صفحات حول البلاغة النبوية، ودقتها، واستشهد بنماذج من هديه ﷺ، مُشيداً بروعة أسلوبه ﷺ، ودقة فصاحته، وعمق ألفاظه، ومما استشهد به الأستاذ الرافعي حيث قال: تأمل قوله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ

33- البلاغة النبوية: 279.

يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ»[34].

هذا كلام أبلغ ما أنت واجد من تفسيره تلك النفس المؤمنة بإحساسها الرقيق، كأنَّه حاسة من النور كُبِّتْ في شعورها، وتلك النفس الفاجرة بإحساسها الغليظ، كأنَّه حاسة من التراب ... ويكاد المؤمن الذي يسمع هذا الوصف يذكِّره ذنوبه أن يُحسَّ بحركة جبل يهم أن ينقلع فيميل عليه، أما الفاجر فيسمعه يُذكِّره ذنوبه فإذا هي في خياله نقطٌ سودٌ تمر مرور الذباب، ليس منه الحس به، كما يُحِسُّ من يُضربُ على أنفه برجل ذبابة ... وجعل الذباب يمر على أنفه دون عينه أو فمه، وذلك منتهى الجمال في التصوير؛ لأن الذباب إذا وقع على الفم أو العين ثبت وألحّ، فإذا وقع على قصبة الأنف لم يكد يقف ومرّ مروره[35].

هذه نماذج من كلام الرافعي في البلاغة النبوية بعامة، وهي أقرب للمديح النبوي في كثير من جوانبها منها إلى الدراسة التحليلية، وإن حلل فيحلل ويعبر عن إعجابه بأسلوب أدبي، يبين فيه جمال وروعة البلاغة النبوية.

وقامت دراسات أخرى، ولكن كانت تأتي في أثناء الكتب التي كتبها بعض الكتَّاب الذين اهتموا بالبلاغة النبوية، ومن أشهرهم: الأستاذ أحمد حسن الزيات فقد كتب عدت مقالات ضمها في كتاب واحد أسماه (وحي الرسالة)، ومنهم الأستاذ عباس محمود العقاد فقد خصص فصلاً بعنوان (البليغ) في كتابه (عبقرية محمد)، وغيرهم.

خصائص أسلوب الحديث النبوي

يمتاز الحديث النبوي بعدة مزايا، وخصائص من أهمها[36]:

1. جمع بين جزالة المفردات، والوضوح في الدلالات، فإذا اقترن الوضوح بالجزالة كان الكلام قمة في الروعة والبيان، وأضحى صالحًا لأن يلقى على الناس، ليفتح مغاليق قلوبهم ويقودهم إلى النور ودرب الخير. فكان ﷺ لا يسرد الحديث سردًا

34- صحيح البخاري: 67/8، الحديث: 6308.

35- للرافعي: 21/3، راجعه: د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت.

36- منهج النقد في علوم الحديث لنور الدين عتر: 38-39، دار الفكر دمشق، سورية، الطبعة الثالثة: 1997م. والتصوير الفني في الحديث النبوي تأليف: د. محمد الصباغ، 24-25، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى: 1988م.

متتابعًا، بل يتأنى في إلقاء الكلام ليتمكن من الذهن، ويؤثر في السامعين.

عَـنْ عَائِشَـةَ رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْهَـا أَنَّ النَّبِـيَّ ﷺ كَـانَ يُحَـدِّثُ حَـدِيثًا لَـوْ عَـدَّهُ الْعَـادُّ لَأَحْصَاهُ[37] أي لو أراد المستمع عد كلمات أو حروف حديثه ﷺ لأمكنه ذلـك بسـهولة، فكان ﷺ لا يسرد الكلام سردًا بل يرتله ويزينه ويتمهل ليتفكر فيه هو وسامعه.

2. من خصائص أسلوبه ﷺ كثرة التكرار، فكان ﷺ كثيراً ما يعيد الحديث لتعيه الصـدور كما روي عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَـالَ: « كَـانَ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ يُعِيـدُ الْكَلِمَـةَ ثَلاثًـا لِتُعْقَـلَ عَنْهُ »[38].
3. من خصائص أسلوبه ﷺ الإيجاز في القول، فلم يكـن ﷺ يطيـل الأحاديـث، بـل كـان كلامه قصداً. وقد أشار إلى هذا بنفسه حين قال ﷺ في الحديث حسـن الإسـناد: « يـا أَيُّها الناسُ، إنِّي قَدْ أُوتِيـتُ جَوامِـعَ الكَلِـمِ وخَواتِمِـهُ، واخْتُصِـرَ لـي اخْتِصَـاراً، ولَقَـدْ أَتَيْتُكم بِها بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، فلا تَتَهَوَّكُوا، ولا يَغُرَّنَّكُم المتَهَوِّكُونَ »[39].
4. من خصائص أسلوبه ﷺ البعد عن التكلف في كل الأمور، عَنْ أَنَسٍ قَـالَ: « كُنَّـا عِنْـدَ عُمَرَ فَقَـالَ: نُهِينَـا عَـنْ التَّكَلُّـفِ »[40]، النـاهي هـو الرسـول ﷺ فـإذًا قـال الصـحابي: « نُهينا » فإن هذا له حكم الرفع يعني كأنه قال نهانا رسـول الله ﷺ فعليـه يكـون هـذا الناهي هو الرسول ﷺ نهى أن يتكلف الإنسان ما لا علـم لـه بـه ويحـاول أن يظهـر، والمذموم والممنوع من السجع ما يكون عن قصده إليه، وتكلف في تحصـيله، وأمـا ما اتفق حصوله بسبب قوة السليقة وفصاحة اللسان فبمعزل عن ذلك بمظهـر العـالم العارف، فهو من الموسيقى العذبة التي تنساب من العبارة الحديثية، ومن خصائصـها الواضحة.
5. ومن خصائص أسلوبه ﷺ القدرة الرائعة على التصـوير: كالصـور والتشـبيهات، الـتي امتازت بالدقة، والواقعية، والجدّة، والتصوير بالاستعارة، التي تعطي الصـورة الحيويـة التامة، والتصوير بالكناية حرصًا مـن الـنبي ﷺ ليعبّـر عـن المعـاني بصـورة حسـية، فجعل نصيب الكناية كبيراً جداً.

37- صحيح البخاري: 190/4، الحديث: 3567.

38- الجامع الصحيح سـنن الترمـذي لأبـي عيسـى الترمـذي: 600/5-601، الحـديث: 3640، تحقيـق: إبراهيم عطوة عوض، شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، الطبعة الأولى، 1962م.

39- مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي: 419/1، و فتح الباري لابن حجر: 525/13.

40- صحيح البخاري: 95/9، الحديث: 7293.

إضافة إلى هذه الصور الجزئية تجسدت في أحاديثه ﷺ صور كلية تشترك في إدراك خصائصها الجمالية عدة حواس مثل: البصر، والشم، والتذوق، والسمع، واللمس.

فمنها على سبيل المثال لا الحصر قوله ﷺ في وصف الحوض: قَالَ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنْ الْوَرِقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنْ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا»(41). تجسدت صور كلية ندركها بعدة حواس: البصر، والشم، والتذوق، ونحس من خلالها خصائص الصور الكلية الرائعة فنحس الحركة في قوله ﷺ: «مَسِيرَةَ» و«وَرِيحُه» و«شَرِب»، ونحس اللون من قوله ﷺ: «أَبْيَض»، ونشم أطيب ريح من قوله ﷺ: «الْمِسْكِ».

إلى غيرها من الصور الحديثية التي تعتمد على إرهاف الحس، والتجسيم للصور نحسها وندركها، إحساس الأحياء، وتؤثر فينا أبلغ تأثير.

هذه بعض خصائص أسلوبه ﷺ في الحديث النبوي، فقد أوتي النبي ﷺ قوة البيان التي يندر مثلها في أقوال البشر مهما علت منزلتها، وقوتها في البلاغة والبيان.

ولا شك أن البيان البليغ يأخذ بمجامع القلوب ويسري في كيان الإنسان الذهني والعاطفي، فكيف إذا كان هذا المستمع من أساطين البلاغة، مذّواقًا لها، مشغوفًا بها، مدركًا لدقائقها، وسر الإعجاز البلاغي فيها.

إشكاليات العلماء في الاحتجاج بالحديث النبوي

قامت عدة إشكاليات ذكرها العلماء من القدامى والمحدثين حول الاحتجاج بالحديث النبوي في تقعيد القواعد البلاغية، أو الاحتجاج به بتحفظ، ويمكن حصرها في ثلاث إشكاليات:

1. إشكالية رواية الحديث بالمعنى.
2. إشكالية اللحن والخطأ في الحديث.
3. إشكالية تدوين الحديث بعد فساد اللغة.

41- شرح النووي على صحيح مسلم لأبي زكريا يحيى النووي: 55/15، الحديث: 2292، المطبعة المصرية بالأزهر، الطبعة الأولى: 1347هـ.

أولاً: إشكالية رواية الحديث بالمعنى

ذهب الدكتور: شوقي ضيف عند كلامه عن الاستشهاد بالحديث النبوي إلى قوله: « ... رأى أئمة اللغة والنحو من علماء البصرة والكوفة وبغداد أن لا يحتجوا بشيء من الحديث في إثبات لغة العرب والاستدلال على القواعد التي دونوها؛ لأن الأحاديث لم تكن تُروى بألفاظها كما جاءت عن رسول الله ﷺ إنما كانت -تروى غالبًا- بمعانيها، ومن أجل ذلك كان كثير من الأحاديث تتعدد رواياته»(42). هذه الإشكالية لا ينبغي أن نسلم بها على إطلاقها، وذلك لأمور نذكر منها:

أ. أن ورود الحديث الواحد في ألفاظ مختلفة قد يكون سببه أن الرسول ﷺ كان يعيد الكلام ثلاثًا لقصد البيان وإزالة الإبهام، فقد روي عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعِيدُ الْكَلِمَةَ ثَلاثًا لِتُعْقَلَ عَنْهُ »(43).

ب. أجمع العلماء على أن الراوي إذا لم يكن عالمًا عارفًا بالألفاظ ومدلولاتها، ومقاصدها، ونكتها، خبيراً بما يُحيل معانيها، بصير بمقادير التفاوت بينها، فإنه لا تجوز له الرواية بالمعنى، بل يتعين عليه أن يؤدي نفس اللفظ الذي سمعه، لا يخرم منه شيئًا، ولا يبدل لفظًا مكان لفظ.

واختلفوا في جواز الرواية بالمعنى فيما إذا كان الراوي عالمًا عارفًا بصيراً بذلك(44).

ولا تجوز رواية الحديث بالمعنى إلا بشروط ثلاثة:

1. أن تكون من عارف بمعناه: من حيث اللغة، ومن حيث مراد المروي عنه.
2. أن تدعو الضرورة إليها، بأن يكون الراوي ناسياً للفظ الحديث حافظاً لمعناه. فإن كان ذاكراً للفظه لم يجز تغييره، إلا أن تدعو الحاجة إلى إفهام المخاطب بلغته.
3. أن لا يكون اللفظ متعبداً به: كألفاظ الأذكار ونحوها.

وإذا رواه بالمعنى فليأت بما يشعر بذلك فيقول عقب الحديث: أو كما قال.

وثمة أمر هام يجدر التنبه إليه، والتيقظ له، وهو أن هذا الخلاف في الرواية

42- تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي: 38، دار المعارف المصرية، القاهرة، الطبعة الحادية عشرة.

43- سنن الترمذي: 5/600-601، الحديث: 3640.

44- الحديث النبوي في النحو العربي تأليف د. محمود فجال: 64.

بالمعنى إنما كان في عصور الرواية قبل تدوين الحديث، أما بعد تدوين الحديث في المصنفات والكتب فقد زال الخلاف ووجب إتباع اللفظ، لزوال الحاجة إلى قبول الرواية بالمعنى، «وقد استقر القول في العصور الأخيرة على منع الرواية بالمعنى عملاً، وإن أخذ بعض العلماء بالجواز نظراً».

فلا يسوغ لأحد الآن رواية الحديث بالمعنى، إلاّ على سبيل التذكير بمعانيه في المجالس للوعظ ونحوه، فأما إيراده على سبيل الاحتجاج أو الرواية في المؤلفات، وتقعيد القواعد فلا يجوز إلا باللفظ(45).

ج. أجاز بعض الصحابة والتابعين رواية الحديث بإبدال كلمة بأخرى عند الضرورة، قال الإمام الغزالي: «نقل الحديث بالمعنى دون اللفظ حرام على الجاهل بمواقع الخطاب، ودقائق الألفاظ، أما العالم بالفرق بين المحتمل وغير المحتمل، والظاهر والأظهر، والعام والأعم، فقد جوّز له الشافعي، ومالك، وأبو حنيفة، وجماهير الفقهاء أن ينقله على المعنى إذا فهمه، وقال: فريق لا يجوز له إلا إبدال بما يرادفه ويساويه في المعنى كما يبدل: القعود بالجلوس، والعلم بالمعرفة، والاستطاعة بالقدرة، والإبصار بالإحساس بالبصر، والحظر بالتحريم، وسائر ما لا يشك فيه، وعلى الجملة ما لا يتطرق إليه تفاوت بالاستنباط والفهم، وإنما ذلك فيما فهمه قطعاً لا فيما فهمه بنوع استدلال يختلف فيه الناظرون»(46).

والأولى إيراد الحديث بلفظه دون التصرف فيه، فلا يجوز تغيير اللفظ إذا كان واحدًا من أربعة أنواع(47):

الأول: ألا يكون مما تُعبد بلفظه، كالتشهد والقنوت، ونحوهما.

الثاني: ألا يكون من جوامع كلمه ﷺ التي افتخر بإنعام الله عليه بها.

الثالث: ما يستدل بلفظه في حكم لغوي، إلا أن يكون الذي أبدل اللفظ بلفظ آخر عربيًا، يُستدل بكلامه على أحكام العربية.

45- منهج النقد في علوم الحديث: 228.

46- المستصفى للإمام: أبو حامد الغزالي: 278/2، تحقيق: د. حمزة زهير حافظ، طبعة خاصة بالمدينة المنورة.

47- تدريب الراوي للسيوطي: 60/2-61، تحقيق: طارق بن عوض الله، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى: 2003م.

الرابع: ما تضمنته بطون الكتب، فليس لأحد أن يغير لفظ شيء من كتاب مصنّف؛ لأنـه لا يمتلك تغيير تصنيف غيره.

ثانيًا: إشكالية اللحن والخطأ في الحديث

وقف د. شوقي ضيف على هـذه الإشـكالية قـائلاً: « ... وكـان طبيعيًـا أن يتداولـه الأعاجم والمولدون ... حتى ينهجوا نهـج الرسـول ﷺ ويقتفـوا أثـره، فـزادوا ونقصـوا في عبارته، وقدموا في كلماتها وأخروا، وأبدلوا ألفاظ بألفاظ، ومن أجل ذلك رأى أئمة اللغـة والنحو من علماء البصرة والكوفة وبغداد أن لا يحتجـوا بشـيء مـن الحـديث في إثبـات لغة العرب، والاستدلال على القواعد التي دونوها »[48].

ولذلك ذهب بعض علمـاء العربيـة إلى أن مـن الأسـباب الـتي تـدفعهم إلى عـدم الاحتجاج بالحديث الشريف في تقعيد قواعـد العربيـة، وقـوع اللحـن والخطـأ فيـه؛ لأن كثيراً من الرواة كانوا غير عرب بالطبع، ولا يعلمون لسان العـرب بصـناعة النحـو فوقـع اللحن في كلامهم وهم لا يعلمون، ودخل في كلامهم ورواياتهم غـير الفصـيح مـن لسـان العرب، ونعلم قطعًا من غير شك أن رسول الله ﷺ كان أفصح العـرب، فلـم يكـن يـتكلم إلا بأفصح اللغات، وأحسن التراكيب وأشهرها، وأجزلها وإذا تكلم بلغة غـير لغتـه فإنمـا يتكلم بذلك مع أهـل تلـك اللغـة علـى طريـق الإعجـاز وتعلـيم الله ذلـك لـه مـن غـير معلم[49].

(اللَّحْنُ): بسكون الحاء، إمالة الكلام عن جهته الصحيحة في العربية، يقـال: لَحَـنَ لحنًا، وهو عندنا من الكلام المُولَّد؛ لأن اللّحن مُحدث لم يكن في العرب العاربة، الـذين تكلموا بطباعهم السليمة. و(الخطأ) إصابة خلاف ما يقصد، وقد يكون في القول والفعـل، واللحن لا يكون إلا في القول تقول لحن في كلامه ولا يقـال لحـن في فعلـه كمـا يقـال أخطأ في فعله إلا على استعارة بعيدة، ولحن القول مـا دل عليـه القـول[50]، وفي القـرآن ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: 31].

48- تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي: 38.

49- خزانة الأدب للبغدادي: 34/1، تحقيق: محمد نبيـل، وإميـل اليعقـوب، دار الكتـب العلميـة، بـيروت: 1998م.

50- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري: 55، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة.

هذه الإشكالية ينبغي ألا تكون مانعًا للاحتجاج بالحديث النبوي في تقعيد قواعد البلاغة العربية، وذلك للأمور التالية:

أ. لقد بذل العلماء المسلمون جهودًا عظيمة في سبيل حفظ الحديث الشريف، وبحثوا فيه رواية ودراية، وخطوا خَطوات جليلة كفلت للسنة السلامة من العبث، ولعل من أهمها التزام الإسناد، ودراسة حياة الرواة وتاريخهم، وهكذا نشأ علم الجرح والتعديل، الذي وضع أسسه كبار الصحابة والتابعين، وألفت في الرواة مصنفات ضخمة، حتى إنه لم يعد يختلط الكذّابون والضعفاء بالعدول الثقات، وأصبح من السهل جدًا أن يميزوا بين الخبيث والطيّب في كل عصر، فقدموا للحضارة الإنسانية أعظم إنتاج في هذا المضمار، يفخر به المسلمون في كل زمان ومكان، يقول المستشرق الألماني (شبرنجر): «لم تكن فيما مضى أمةٌ من الأمم السالفة، كما أنه لا توجد الآن أمة من الأمم المعاصرة أتت في علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون في هذا العلم العظيم الذي يتناول أحوال خمسمائة ألف رجل وشؤونهم».

ب. القول بأن أكثر رواة الحديث كانوا غير عرب، لا ينهض حجة لرفض الاحتجاج بحديث الرسول ﷺ في تقعيد قواعد البلاغة العربية، وذلك للأسباب الآتية:

1. إن ما وقع من لحن أو خطأ أو تصحيف في حديث الرسول ﷺ قليل نادر، بيّنه علماء الحديث فيما صنفوا من مصنفات.
2. الزعم بكون بعض رواة الحديث من غير العرب قد أدى إلى وقوع اللحن فيه، يمكن الرد عليه؛ بأن اللغة العربية مُلك لمن يتعلمها فيتقنها، فإن أتقنها فليس هناك فرق بينه وبين العربي سوى النسب، والنسب لا أثر له في اللسان، كذلك فإن هؤلاء المسلمين الأعاجم من رواة الحديث قد وصفوا بالضبط والدقة، وحملوا الحديث على أكمل وجه، فهذا هو الإمام البخاري -رحمه الله- أثنى عليه العلماء ثناء عظيمًا قال عنه ابن خُزيمة: «ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله ﷺ، وأحفظ له من محمد بن إسماعيل»(51)، وقال أبو عيسى: «لم أر بالعراق ولا خُراسان في معنى العلل والتاريخ، ومعرفة الأسانيد

51- سير أعلام النبلاء للذهبي: 431/12، حقق هذا الجزء: صالح السَّمر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى: 1983م.

أعلم من محمد بن إسماعيل»[52]، وقال محمد بن إدريس الرازي: «يقدم عليكم رجلٌ من خراسان لم يخرج منها أحفظ منه، ولا قدم العراق أعلم منه. فقدم علينا البخاري»[53]. وهذا أنموذج لرواة الحديث أولئك الرجال الذين كان معظمهم من الأعاجم.

ثالثًا: إشكالية تدوين الحديث بعد فساد اللغة

أشار إلى هذه الإشكالية د. شوقي ضيف متأثراً بآراء أئمة اللغة حيث قال: «... الحديث تأخر تدوينه، وكان طبيعيًا أن يتداوله الأعاجم والمولدون قبل هذا التدوين حتى ينهجوا نهج الرسول ﷺ ويقتفوا أثره، فزادوا ونقصوا في عبارته، وقدموا في كلماته وأخروا، وأبدلوا ألفاظ بألفاظ، ومن أجل ذلك رأى أئمة اللغة والنحو من علماء البصرة والكوفة وبغداد أن لا يحتجوا بشيء من الحديث في إثبات لغة العرب، والاستدلال على القواعد التي دونوها»[54].

بيَّن د. شوقي متأثرًا بأئمة اللغة أن الحديث النبوي لا يُحتجُّ به لتدوينه بعد فساد اللغة، وهذا الزعم مردود للأسباب الآتية:

1. لقد بُدئ بتدوين الحديث النبوي في عهد الرسول الأمين ﷺ، والأدلة كثيرة على ذلك، منها ما رواه أبو داوود في سننه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: «كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ؟ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ فَقَالَ: «اكْتُبْ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلاَّ حَقٌّ»[55].

وعن مجاهد، قال: دخلتُ على عبد الله بن عمرو، فتناولت صحيفة تحت رأسه، فتمنَّع عليَّ. فقلت: تمنعُني شيئًا من كتبكَ؟ فقال: إن هذه الصحيفة الصادقة التي سمعتُها

52- سير أعلام النبلاء للذهبي: 432/12.

53- المصدر السابق: 433/12.

54- تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي: 38.

55- تأليف: سليمان السجستاني: 403، الحديث: 3646، الناشر: بيت الأفكار الدولية، الرياض، والأردن: 1999م.

من رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه أحد، فإذا سَلِمَ لي كتاب الله، وهـذه الصـحيفة والـوَهط، لم أُبال ما ضيَّعتُ الدنيا(56).

وحَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ عَنْ أَخِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي إِلاَّ مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلاَ أَكْتُبُ(57).

هذه بعض الأدلة التي تؤكـد أن البـذرة الأولى لتـدوين الحـديث بـدأت في العهـد الأول من عهد النبوة، فنقل الإمام أحمـد بـن حنبـل محتواهـا في مسـنده، وضـمت كتـب السنن الأخرى جانبًا كبيراً منها(58).

2. وفي عهد الصحابة بدأ بعض العلماء من التابعين بتـدوين حـديث الرسـول ﷺ، أخـذًا من أحد الصحابة مباشرة، فهذا (هَمَّام بن مُنَبِّه) أحد أعلام التـابعين يلقـى الصـحابي الجليـل أبـا هريـرة ﷺ، ويكتـب عنـه كـثيراً مـن حـديث الرسـول ﷺ، ويجمعـه في صحيفة يطلق عليها اسم الصحيفة الصـحيحة، وقـد نقلـها الإمـام أحمـد بتمامهـا في مسنده، كما نقل الإمام البخاري عددًا من أحاديثها في أبواب شـتى، ولهـذه الصـحيفة أهمية تاريخية كبرى في تدوين الحديث الشريف؛ لأنها حجة قاطعـة علـى أنـه دُوِّنَ في عصر مبكر؛ لأن همّامًا لقي أبا هريرة ﷺ، ولا شـك أنـه كتـب عنـه قبـل وفاتـه، علمًا بأن أبا هريرة ﷺ، توفي حوالي سنة: 59هــ، قـال البخـاري: قـال علـي: سـألت رجلاً لقي هماماً عن موته، فقال: سنة ثنتين وثلاثين ومئة(59).

وصحيفة علي بن أبي طالـب: وهـي صـحيفة صـغيرة تشـتمل علـى العقـل -أي مقادير الديات- وعلى أحكام فكاك الأسير.

أخرج نبأها البخاري، وغيره عن أبي جحيفة قال: قلت هـل عنـدكم كتـاب؟ قـال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما في هذه الصـحيفة. قـال: قلـت: فمـا في هذه الصحيفة؟ قال العقل. وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.

56- سير أعلام النبلاء للذهبي: 89/3. والوَهط: بستان عظيم بالطائف، غرم مرة على عروشـه ألـف ألـف درهم.

57- صحيح البخاري: 34/1، الحديث: 113.

58- منهج النقد في علوم الحديث: 46/1.

59- سير أعلام النبلاء: 311/5-312.

وصحيفة سعد بن عبادة الصحابي الجليل. أخرج الترمذي في سننه عن سعد بن عبادة «وجدنا في كتاب سعد أن النبي ﷺ قضى باليمين والشاهد». لكن لم نعثر على غير هذا الحديث من هذا الكتاب. ولعل كثيراً من الأحاديث التي رويت عن سعد من هذا الكتاب(60).

3. وفي عهد التابعين شاع تدوين الحديث وكتابته، فهذا الحسن البصري المتوفى (110هـ) يقول: «إن لنا كتبًا كنا نتعاهدها»، وأما ابتداء تدوين الحديث فإنه وقع على رأس المائة في خلافة عمر بن عبد العزيز بأمره ففي صحيح البخاري في أبواب العلم: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإني خفت دروس العلم، وذهاب العلماء».

يستفاد من هذا ابتداء تدوين الحديث النبوي، ثم أفاد أن أول من دونه بأمر عمر بن عبد العزيز بن شهاب الزهري(61).

ويتبين مما سبق أن هذه الوثائق قد دُوِّنت في القرن الأول الهجري، وأن ما ذكره أئمة العربية من أسباب في عدم الاحتجاج بالحديث النبوي مردودة، والمنهج الصحيح أن الحديث النبوي هو الأصل الثاني من أصول الاحتجاج البلاغي، في تقعيد القواعد بعد القرآن الكريم، وهذا ما ينبغي أن يسلكه الباحثون المعاصرون، لاسيما وكتب الحديث الصحيحة المنقحة والمصونة من كل ما يبعث الشك فيها، تضم مئات الأحاديث، مطبوعة ومنتشرة، تيسر الطريق أمامنا، وتبين لنا أقول الرسول ﷺ لفظًا ومعنًا، وفي مقدمة هذه الكتب صحيح البخاري ومسلم -رضي الله عنهما- فلنبذل كل ما بجهدنا لنقف على أسرار الإبداع والجمال الفني البلاغي، في أحاديث أفصح العرب قاطبة ﷺ، ولنتوج بها أعمالنا لنفخر بها في الدنيا والآخرة.

ويدعم كل ما أرمي إليه من جواز الاحتجاج بالحديث النبوي كشاهد من الشواهد البلاغية التي تُسهم في تقعيد قواعد البلاغة العربية، ما أقرّه مجمع اللغة العربية المصري من قرارات هامة خاصة بالأصول العامة، ساعدت على زيادة الثروة اللغوية العربية بإرساء مبدأ تكملة المواد اللغوية، التي وردت غير مكتملة في المعاجم، بمصادر أخرى هي كتب الأدب والعلم والتاريخ، إلى جانب الاحتجاج بلفظ الحديث النبوي في

60- منهج النقد في علوم الحديث: 46.

61- تدريب الراوي للسيوطي: 119/1.

أحوال خاصة، مما كان له أكبر الأثر في اتساع حدود اللغة، وطواعيتها للتعبير عما يحتاج إليه العرب في حياتهم الحديثة[62].

نماذج تطبيقية من هدي خير البرية ﷺ

الأنموذج الأول: بعنوان (ضياع الأمانة)

عن أبي هريرة قال: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ فقالَ: بَعْضُ الْقَوْمِ سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ حَتَّى إذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ ﷺ: «أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنْ السَّاعَةِ؟» قَالَ هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ ﷺ: «فَإِذَا ضُيِّعَتْ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ»، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ ﷺ: «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ»[63].

شرح المفردات

يُحَدِّثُ الْقَوْمَ: المراد بالتحديث: الوعظ والتذكير، فقد كان النبي ﷺ، يعظ أصحابه ويذكرهم بين الحين والآخر، ولا يكثر عليهم خشية الملل.

فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ: أي استمر في حديثه، ولم يردَّ على السائل، تنبيهًا له إلى تعلّم أدب الحديث؛ لأن من أدب المتعلم ألا يُسأل العالم ما دام مشتغلاً بحديث أو غيره؛ لأن من حق القوم الذين بدأ بحديثهم ألا يقطعه عنهم حتى يتمه.

ضُيِّعَتْ الأَمَانَةُ: المراد بالأمانة كل ما ائتمن الله تعالى عليه عباده من تكاليف وواجبات دينية، ودنيوية، وفي الحديث إسناد الأمور إلى غير أهلها.

وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ: أي أسند وجعل في غير أهله[64].

النكت البلاغية في الحديث

حوى الحديث من جوامع الكلم ما علا بشأنه، ورفع من قدره، لا غرو فهو من كلام أفصح الخلق قاطبة، وفيما يلي بعض النكت البلاغية الواردة في الحديث:

62- مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الأعداد (81 – 102): 10.

63- صحيح البخاري: 21/1، الحديث: 59.

64- لسان العرب لابن منظور الأفريقي المصري، 4830، مادة: (وسد)، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

1. قوله ﷺ: «بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ» جملة خبرية من الضرب الابتدائي، والمخاطب بها خالي الذهن من الحكم، ألقي إليه الخبر خال من المؤكدات، والغرض منها: (فائدة الخبر).
2. قوله ﷺ: «مَتَى السَّاعَةُ؟» أسلوب إنشائي طلبي جاء بصيغة الاستفهام، باسم من أسماء الاستفهام التي للتصور وهي (متى) ويطلب بها تعيين الزمان المستقبل، وأجاب عنه الرسول ﷺ بقوله: «فَإِذَا ضُيِّعَتْ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ». ولفظ (الساعة) كناية عن القيامة، وعن نهاية الدنيا، وفناء العالم.
3. قوله ﷺ: «سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ» والشاهد فيه تكرار لفظ (قال) الذي يفيد الإيضاح، ودفع الإيهام والالتباس.
4. قوله ﷺ: «أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنْ السَّاعَةِ؟» أسلوب إنشائي طلبي جاء بصيغة الاستفهام، باسم من أسماء الاستفهام التي للتصور وهو (أين) ويطلب بها تعيين المكان، وأجاب عنه بقوله: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. ولفظ (الساعة) كناية عن القيامة أيضًا، وعن نهاية الدنيا، وفناء العالم.
5. قوله ﷺ: «ضُيِّعَتْ الأَمَانَةُ» شبه ﷺ الواجبات والتكاليف الشرعية بالأمانة، ثم حذف المشبه وصرح بالمشبه به، على سبيل الاستعارة التصريحية، بجامع وجوب الحفظ والرعاية في كلٍ.
6. قوله ﷺ: «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ» كناية عن إسناده إلى غير الأكفاء ذوي الجدارة.

شرح الحديث أدبيًا

ها هو أفصح الخلق ﷺ وأعلمهم بالله وأشدهم له خشية يجمع أصحابه في المسجد، ويجلس جانبهم كواحدٍ منهم ليعظهم، ويذكرهم، ويرشدهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، ويدخل عليه أعرابي فيرى الرسول ﷺ يُحدث أصحابه فيقف يستمع إليه، ثم يلقي إليه سؤالاً قبل أن يتمم الرسول ﷺ كلامه، يسأله عن الساعة يريد أن يعرف أحوالها ووقتها، ويظهر أنه كان مشغول البال بها، ولكن الرسول ﷺ لم يجبه، وتابع يحدث أصحابه، وهنا ظن بعض أصحابه أن الرسول ﷺ لم يسمع سؤاله، وظن بعضهم الآخر أن الرسول ﷺ قد سمع ولكنه كره أن يجيبه؛ لأنه لم يتمم حديثه. واستمر الرسول الأكرم في حديثه حتى إذا انتهى منه التفت إلى أصحابه يسألهم أين السائل عن الساعة؟ فيجيب الأعرابي: ها أن ذا يا رسول الله، أي ها أنا حاضر بين يديك

أسمع كلامك، وكلي انتباه إلى ما تقول، فيجيبه الرسول ﷺ بتلك الكلمة الجامعة وهي قوله: «فَإِذَا ضُيِّعَتْ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ» حقًا إنها لكلمة هادفة، وحكمة بالغة من جوامع كلمه ﷺ، فالأمانة إذا ضاعت أصبحت الحياة فوضى، وكانت أكبر برهان عن قرب قيام الساعة.

الأنموذج الثاني: بعنوان (أسلوبه ﷺ الحكيم في التربية والتعليم)

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهُ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، وَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي، وَلاَ شَتَمَنِي، وَلاَ ضَرَبَنِي. وَإِنَّمَا قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ». أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ(65).

شرح المفردات

فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ: أي نظروا إليَّ شَزْراً عن اليمين والشِّمال وليس بمُسْتَقيم الطَّريقة. وقيل هو النَّظَر تحديقًا بمُؤْخِرة العين، وأكثرُ ما يكون النَّظرُ الشـزْرُ في حال الغضَب(66).

وَاثُكْلَ أُمِّيَاهُ: الثُكْل -بضم الثاء وإسكان الكاف وبفتحهما جميعاً- لغتان حكاهما الجوهري وغيره، وهو فقدان المرأة ولدها، وامرأة ثَكْلى وثاكِلٌ، و ثكِلَتْه أُمُّه بكسر الكاف وأَثْكَله الله تعالى أمه، وقوله: «أُمِّيَاهُ» هو بكسر الميم(67).

يُصَمِّتُونَنِي: الصَّمْت: معروف صَمَتَ يصمت صَمْتاً، إذا سكت. وأصمتُّه أنا، إذا أسكتُّه. ويُصَمِّتُونَنِي أي: يسكتونني يعني يأمرونني بالصمت والسكوت بالأمر بذلك بالإشارة، غضبت، لجهلي بقبح ما فعلت ومبالغتهم في التنكير عليّ(68).

65- شرح النووي على مسلم: 20/5-21.

66- تاج العروس من جواهر القاموس: 164/12.

67- الصحاح للجوهري: 333/4، مادة: (ثكل).

68- تاج العروس من جواهر القاموس: 591/4، مادة: (صمت).

مَا كَهَرَنِي: أي ما انتهرني، الكَهْرُ: الانْتِهار، يُقال: كَهَرَه كَهْراً، إذا انْتَهَرَه تَهَاوُناً بـه. والكَهْـرُ: استِقْبالُك إنْساناً بوجهٍ عابِسٍ تَهاوُناً به وازْدِراءً[69].

النكت البلاغية في الحديث

بأسلوب لا يُساما وبلاغة لا تُبارى يعلمنا سيد الخلق وأفصحهم، كيف نعلم ونتعلم، برفق، وليونة، وبساطة، دون تشدد وتعنت، وأن نحسن للمتعلمين فلا ننهرهم، ولا نضربهم، ونرفق بهم لنحببهم في العلم والتعلم، علّمنا كل هذا بعبارات بلغت القمة في الإيجاز والبيان، ننهل منها نكتًا بلاغية عديدة منها:

1. قوله ﷺ: «فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ» استعارة تصريحية، فقد استعار ﷺ الرمي للنظر تحديقًا بمُؤْخِرة العين؛ وحذفَ المشبه، وأثبت المشبه به، بجامع الجـزر؛ لأن الرمي يكون بالشيء الثقيل أو المحدد، كالحجر والسهم. والمعنى: نظروا إليّ حديداً كما يرمى السهم، زجراً من غير كلام.
2. قوله ﷺ: «وَاثُكْلَ أُمِّيَاهُ» أسلوب إنشائي طلبي جاء بصيغة النداء بأداة من أدوات النداء وهي (وا) تُسْتَعَمل للنّدْبَة، وهيَ الّتي يُنَادَى بها المندوبُ الْمُتَفجَّعُ عليه[70]، والغرض من النداء: التنبيه على أمر خطير حدث منه، كأن يقول: فقدتني أمي على ما فعلت.
3. قوله ﷺ: «مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟» أسلوب إنشائي طلبي جاء بصيغة الاستفهام باسم من أسماء الاستفهام وهو: (ما) وهو للتصور، يطلب به الشرح والتوضيح، والغرض منه: التعجب.
4. قوله ﷺ: «قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ» محسن بديعي من المحسنات المعنوية وهو الطباق بين: (قبله) و(بعده) الذي جمع بين متضادين.
5. قوله ﷺ: «إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ» الشاهد فيه: أسلوب القِصَر، قصر موصوف على صفة وهو إضافي للقلب، فالمقصور عليه في الأول (الصلاة) المقصور «التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ» أي لا يجوز فيه غير ذلك.

وأداة القصر (إنما) المكسورة الهمزة، وتفيده (إنما) الحصر، والحصر المستفاد

69- تاج العروس من جواهر القاموس: 82/14، مادة: (كهر).

70- البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها تأليف: عبد الرحمن حبنَّكة الميداني: 1/ 240، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى: 1996م.

منها هنا قصر إضافي للقلب[71]. لكن تارة تقتضي الحصر المطلق، وتارة حصراً مخصوصًا يفهم ذلك بالقرائن والسياق.

6. أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أسلوب احتراس أو تكميل من الوقوع في الخطأ في لفظ من ألفاظ الحديث، وهو زيادة إطنابيّة في الكلام، يَدْفَع بها المتكلّم إيهاماً اشتمل عليه كلامه[72].

شرح الحديث أدبيًا

صور مشرقة من البيان والجمال والإبداع، تتراءى للقارئ والسامع لهدي سيد الأنبياء، ودقة بلاغته، وقمة فصاحته، بعبارة لا تبارى، وبلاغة لا تجارى، نظم النبي ﷺ حديثه ليكون بهجة للناظرين، وقمة في الإبداع في لفظه ومعناه للمتأملين.

هذا الرجل من صحابة رسول الله ﷺ كان يأتي إلى المسجد ليقتبس من معين النبوة، علمًا يستنير به قلبه، ويستضيء به عقله، دخل ذات مرة المسجد والرسول الله ﷺ في الصلاة، شرع بالصلاة معه، وبينما الناس في خشوع إذ عطس رجل من المصلين، فسارع إلى تشميته بقوله: «يرحمك الله» على أساس ما علمه من أمور الدين أن تشميت العاطس سنة نبوية، فحدَّق الناس بأبصارهم به، تنبيهًا له على خطئه، فيما فعل من الكلام وهو في الصلاة، فإن الصلاة خشوع وسكون، ولا يصح فيها غير التسبيح، والتكبير، وقراءة القرآن، كما أخبر الرسول الأكرم ﷺ ولما زجره الصحابة بأبصارهم عن الكلام، زاد في حديثه وكلامه فجعل يقول: «وَاثُكْلَ أُمِّيَاهُ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟» أي: فقدتني أمي، ماذا حدث مني، حتى أصبحتم تنظرون إلي بهذه النظرات الحادة؟.

ولم يستطع الصحابة ﷺ أن ينبهوه على خطئه بالقول، لذلك أخذوا بالإشارة يُسكتونه، بضرب أيديم على أفخاذهم، وهنا شعر الرجل بالخطأ، وعرف أن المراد من ذلك أن يكف على الكلام، قال: «لَكِنِّي سَكَتُّ»، فسكت ولم يتكلم، ومضى رسول الله ﷺ في صلاته، حتى إذا انتهى منها، دعا ذلك الرجل، ليرشده بلطف وشفقة ولين، إلى واجبات الإنصات في الصلاة، والخشوع لله ﷻ، وتسبيحه، وحمده، وتلاوة القرآن فيها

71- التحرير والتنوير للشيخ: محمد الطاهر بن عاشور: 237/24، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس: 1997م.

72- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها: 84/2.

مع الخضوع والخشوع، وأن يبقى حاضر القلب مع الله ﷻ، بعيداً عن الكلام الدنيوي الذي يقطع العبد عن ربه، فيقول له رسول الله ﷺ: «إِنْ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»، هذا هو دور الرسول ﷺ في التعليم والتوجيه، والتربية الإسلامية السمحة، بلطف في التوجيه، ولين في الكلام، وأسلوب رائع في النصح والإرشاد، دون أن يجرح شعور ذلك الرجل، أو يوبخه بعنف وشدة على خطئه.

إنَّه بحق درس في التربية والتعليم، من المعلم الأول محمد ﷺ، لكل معلم ومرشد، يعلم الناشئة والدارسين في كل المستويات، كيف يعامل طلابه بلين ورفق، بعيداً كل البعد عن النهر والشتم والضرب.

فهذه دعوة لكل مربٍ ومعلمٍ ليقتفوا أثر المعلم المرشد محمد ﷺ في أسلوبه، وحكمته، وحسن معاملته لصحابته، بأسلوب فذّ حكيم، في معالجة الأخطاء الشخصية التي قد تحدث من الإنسان، فلم يكن رسول الله ﷺ يومًا غليظ القلب قاسيًا في كلامه، إنما كان مثلاً يُحتذى به في حسن التربية والتعليم والتوجيه، والتيسير في كل الأمور، البعد كل البعد عن التشدد والغلظة في كل الأمر مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].

الأنموذج الثالث: بعنوان (خمس خصال تعلَّمهن، وعلِّمهن)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَأْخُذُ مِنْ أُمَّتِي خَمْسَ خِصَالٍ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُهُنَّ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ» قَالَ: قُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّهُنَّ فِيهَا، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلاَ تُكْثِرْ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»[73].

73- مسند الإمام أحمد بن حنبل: 295/13، الحديث: 7917، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مُرشد، مؤسسة الرسالة للنشر، بيروت، الطبعة الأولى: 1997م. والجامع الصحيح سنن الترمذي: 551/4، الحديث: 2305، بلفظ عن رسول الله ﷺ: «من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن».

شرح المفردات

خِصَال: الخَصْلَةُ: الخَلَّةُ، والفَضِيلَةُ، والرَّذِيلَةُ تكون في الإنسان. وقد غلب على الفَضِيلةِ، والجمع: خِصالٌ بالكسر.

الْمَحَارِمَ: المحارم جمع (مَحْرُمَة) وقد تفتح الراء (مَحْرَمَة) وهي ما حرّم الله فعله، وعمله على العباد.

أَعْبَدَ النَّاسِ: أي أكثرهم عبادة، وأعظمهم خشية لله(74).

قَسَم اللَّهُ: أي اقنع بنصيبك من الدنيا تكن أغنى الناس، فالقناعة كنز لا يفنى، وفي القناعة راحة القلب والبال.

تُمِيتُ الْقَلْبَ: أي تذهب بنوره وبهاءه، وتفقد الإنسان شعوره وإحساسه، فلا يستفيق لنصح، ولا يرتدع عن غيّ، وكثرة الضحك دليل السَّفه، وخفة العقل.

النكت البلاغية في الحديث

1. قوله ﷺ: «اتَّقِ الْمَحَارِمَ» أسلوب إنشائي طلبي جاء بصيغة فعل الأمر، وهو ليس أمرًا على حقيقته، وإنما خرج عن صيغته الأصلية لغرض بلاغي يفهم من فحوى الكلام وسياقه وهو: النصح والإرشاد. ومثله أيضاً قوله ﷺ: «ارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ»، وقوله ﷺ: «أَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ»، وقوله ﷺ: «وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ».
2. قوله ﷺ: «بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ» إيجاز بالحذف تقديره: ارض بما قسم الله لك من العيش والمال والرزق الحلال، فهو إيجاز غير مخل بالمعنى؛ لأنه من قول أفصح البشر ﷺ، الذي أعطاه الله ﷻ جوامع الكلم، واختصر له اختصاراً، فالألفاظ قليلة، والمعاني كثيرة، وهذه قمة البراعة والإبداع.
3. قوله ﷺ: «وَلَا تُكْثِرْ الضَّحِكَ» أسلوب إنشائي طلبي جاء بصيغة النهي، بالفعل المضارع المقرون بـ(لا) الناهية، وهو ليس نهيًا على حقيقته، وإنما خرج عن صيغته الأصلية لغرض بلاغي يفهم من فحوى الكلام وسياقه وهو: النصح والإرشاد.
4. قوله ﷺ: «تُمِيتُ الْقَلْبَ» شبه الظلمة التي تحل بقلب الإنسان المكثر للضحك

74- القاموس المحيط للفيروزا بادي: 356/3، مادة: (خصل)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980م. و: 93/4، مادة: (حرم). و: 308/1، مادة: (عبد).

بالموت، فحذف المشبه، وأثبت المشبه به، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، بجامع شدة الظلمة في كل.

5. بين قوله ﷺ: «أَعْبَدَ النَّاس»، وقوله ﷺ: «أَغْنَى النَّاس»، وبين قوله ﷺ: «تَكُنْ مُؤْمِنًا»، وقوله ﷺ: «تَكُنْ مُسْلِمًا»: محسن بديعي وهو (السجع) وتوافق الفواصل بين الجمل.

شرح الحديث أدبيًا

الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه يوضّح لنا في هذا الحديث النبوي الشريف الذي هو قبس من قبسات نور النبوة. ومنارة من منارات الهدى، يوضح لنا الخير، ويرشدنا إلى مدارج العز والكمال، في وصاياه الثمينة الغالية، التي فيها من النصائح والحكم ما يثلج الصدر، ويشفي الغليل، ويرشد إلى الصواب.

ففي الوصية الأولى: بيان لمعنى العبادة الحقة، فليست العبادةُ صورًا، وأشكالاً، ولا مظاهر خارجية، لا صلة لها بالمجتمع والحياة، بل هي الجمال، والاستقامة، والحياة السوية من كل جانب، والتي لا يمكن الوصول إليها إلاّ باجتناب المحارم، والابتعاد عن المزالق، والمكائد التي يسولها لنا الشيطان –والعياذ بالله–، وتطهير النفس من الفواحش، والرذائل، فإذا ابتعدنا عن ذلك كله وصلنا إلى العبادة التي يحبها الإسلام.

وفي الوصية الثانية: بيان لحقيقة الغنى، فليس الغنى بكثرة المال، ولا بملك العقار، ولا بادخار الثروات وتكديسها، ولكن الغنى غنى النفس، فالرضى بالمقسوم راحة للنفس، وطمأنينة للقلب، بل هو السعادة نفسها، وليست الثروة والمال هما كل النعم التي أنعم الله سبحانه وتعالى على البشر، بل من النعم ما يفوقهما أضعافًا مضاعفة، كالإيمان، والصحة، والسلامة، والعيش في أمن وأمان كلها يفوق نعمة الغنى والمال.

وفي الوصية الثالثة: دعوة إلى البر والإحسان إلى أقرب الناس إلى الإنسان، وأولاهم بحسن المعاملة (الجار) الذي أوصى به القرآن في العديد من الآيات، قال تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ﴾ [النساء: 36].

وفي الوصية الرابعة: تظهر مثالية الإسلام، في حبه الخير لجميع الأنام، فليس الدين إلا رحمة وعطفًا، وليست الأخلاق إلا إنسانية ونبلاً، ولهذا يدعو الإسلام إلى حب الخير لجميع الناس، وهذا هو أدب القرآن، وتوجيه النبوة السمحة.

وفي الوصية الخامسة: دعوة إلى الخُلق الرصين باجتناب حياة الهزل، والابتعاد

عن كثرة الضحك، فإن ذلك مما يتنافى مع وقار المسلم، وخلقه القويم، فليست الحياة لهواً ولعبًا وعبثًا، بل هي حياة جد وكفاح، وعمل ونضال، ولله در القائل:

أنا لست من خلط المزاح بجده   فالجدُّ جدٌّ والمزاح مزاح

فما أجمل خلق الإسلام وأنعم به، وما أروع نصائح رسوله ﷺ وأنعم بها، وما أسعد المسلمين بتمسكهم بدينهم وهديه القويم، وما أسعدنا إذ ننهل من فيضه المعين، ونعلم أبنائنا على ذلك، لتقوى صلتهم بدينهم، ويزداد حبهم لرسول ﷺ، وتقوى ملكتهم بألفاظ بلغت الذروة في الفصاحة والبيان، ونوثق صلتهم بلغتهم لغة القرآن، ولغة رسول ﷺ وقوله المتين، التي أربت على كل لغة، وفاقت كل لسان كما قال الجاحظ.

خلاصة القول

عشنا في رحاب الهدي النبوي العظيم، ونهلنا من فيضه المعين، حِكَمًا تنير الدرب أمامنا وأمام الدارسين، مؤكدين ومتأكدين بأنه أصل منيع من أصول الاحتجاج البلاغي في تقعيد قواعد البلاغة العربية، لتزداد البلاغة شرفًا بجزيل قول سيد الأشراف ﷺ، من بلاغته وفصاحته التي فاقت قمة الإبداع بجزالة لفظها، ودقة معانيها، وجمال نظمها، هذه الكنوز والأسرار البلاغية الجمالية نهلناها من فيض هدي خير البرية ﷺ لنزداد جزمًا، ويقينًا أنه الأصل الثاني بعد القرآن العظيم.

فتناولت الموضوع من أطرافه فوجدت القدامى يستشهدون بالحديث بتحفظ، وفي نطاق محدود، دون تعليق، أو إشارة إلى دقائقها، وأسرارها الجمالية، فيأتون بها كشاهد مكمل مؤكد لما يرمون إليه، كما فصلت القول آنفًا، وأحيانًا يقفون محللين مكثرين مبهورين بدقة بلاغتها، وجمال نظمها كما فعل ابن الأثير في المثل السائر.

أما علماء البلاغة من المحدثين فكان استشهادهم بالحديث النبوي قليل جداً، ويكاد يكون معدومًا عن بعضهم، فتجد مؤلفات عديدة في البلاغة العربية لا تجد فيها حديث واحد يستشهد به على صحة قاعدة، أو يوضح به فكرة، فدراساتهم قليلة، وظهرت حديثًا دراسات اهتمت بالحديث النبوي، وبيان أهميته في الدراسات البلاغية، والوقوف على دقائق أسراره، وجمال نظمه.

وفنّدت من خلال هذه الدراسة كل الإشكاليات التي حامت حول عدم الاستشهاد بالحديث النبوي في تقعيد قواعد العربية، واثبت بالأدلة صحة الاستشهاد به، في تقعيد

قواعد البلاغة، والنحو، والصرف، واللغة العربية عمومًا.

وختمت هذه الدراسة بنماذج تؤكد صحة ما رميت إليه، وبينت ما حوته تلك الشواهد من فرائد ونكت بلاغية ما أمكنني ذلك.

فإن كنت قد وفقت فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وإن كانت الأخرى فمرد ذلك قصوري أو تقصيري، والله من وراء القصد.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

مصادر البحث ومراجعه

1. أسرار البلاغة للجرجاني، تحقيق: د. علي رمضان الجربي، منشورات إلجا مالطا، الطبعة الأولى: 2001م.
2. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة: 1973م.
3. الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، تصحيح وشرح: أحمد أمين، وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة للطباعة.
4. البصائر والدخائر للتوحيدي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر، 1953م.
5. البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها تأليف: عبد الرحمن حبنَّكة الميداني، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى: 1996م.
6. البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة السابعة: 1998م.
7. تاج العروس للزبيدي، تحقيق: مصطفى حجازي، صدر عن وزارة الإعلام في الكويت: 1993م.
8. تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي، دار المعارف المصرية، القاهرة، الطبعة الحادية عشرة.
9. التحرير والتنوير للشيخ: محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس: 1997م.
10. تدريب الراوي للسيوطي، تحقيق: طارق بن عوض الله، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى: 2003م.
11. التصوير الفني في الحديث النبوي د. محمد الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى: 1988م.
12. الجامع الصحيح سنن الترمذي لأبي عيسى الترمذي، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، الطبعة الأولى، 1962م.
13. الحديث النبوي في النحو العربي تأليف د. محمود فجال، دار أضواء، الرياض، الطبعة الثانية: 1997م.
14. خزانة الأدب للبغدادي، تحقيق: محمد نبيل، وإميل اليعقوب، دار الكتب العلمية،

بيروت: 1998م.
15. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني، دار المعارف، الرياض، الطبعة الأولى: 1992م.
16. سنن أبي داود تأليف: سليمان بن الأشعث السجستاني، الناشر: بيت الأفكار الدولية، الرياض، والأردن: 1999م.
17. سير أعلام النبلاء للذهبي، حقق هذا الجزء: صالح السَّمر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى: 1983م.
18. شرح النووي على صحيح مسلم لأبي زكريا النووي، المطبعة المصرية بالأزهر، الطبعة الأولى: 1347هـ.
19. صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى: 1422هـ.
20. العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للطباعة، سوريا، الطبعة الخامسة، 1981م.
21. فتح الباري لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة لبنان.
22. الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم، القاهرة.
23. القاموس المحيط للفيروزا بادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980م.
24. لسان العرب لابن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
25. المثل السائر لابن الأثير، تحقيق: د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة: الثانية.
26. مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الأعداد (81 – 102).
27. مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي، تحقيق: عبد الله الدرويش، دار الفكر، بيروت: 1994م.
28. المستصفى في علم الأصول للإمام: أبو حامد الغزالي، تحقيق: د. حمزة زهير حافظ، طبعة خاصة بالمدينة المنورة.
29. مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مُرشد، مؤسسة الرسالة للنشر، بيروت، الطبعة الأولى: 1997م.
30. مقدمة في أصول الحديث لعبد الحق بن البخاري الدهلوي، تحقيق: سلمان الحسيني الندوي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: 1406هـ – 1986م.

31. منهج النقد في علوم الحديث لنور الدين عتر، دار الفكر دمشق، سورية، الطبعة الثالثة: 1997م.
32. موطأ الإمام مالك، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، طبع مؤسسة زايد بن سلطان الخيرية، أبو ظبي، الطبعة الأولى: 2004م.
33. وحي القلم للرافعي، راجعه: د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت.